مصطلح الأدب الجاهلي :

معنى لفظة (الأدب) :

إذا رجعنا الى العصر الجاهلي ننقّب عن الكلمة فيه لم نجدها تجري على ألسنة الشعراء ، إنما نجد لفظة (آدب) بمعنى الداعي الى الطعام ، فقد جاء على لسان طرفة بن العبـــد :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

ومن ذلك المأدبة بمعنى الطعام الذي يدعى اليه الناس ، واشتقوا من هذا المعنى أدب يأدب بمعنى صنع مأدبة أو دعا اليها . ثم تطور هذا المعنى الحسّي الى المعنى التهذيبي الخلقي ، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف ((**أدبني ربي فأحسن تأديبي**)) ، وفي العصر الأموي أخذت الكلمة تدور حول معنى تعليمي ، إذ وجدت طائفة من المعلمين تسمى بـ (المؤدبين) ، كانوا يعلّمون أولاد الخلفاء ما تطمح اليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية ، فكانوا يلقّنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام ، وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذي كان يطلق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن . وفي العصر العباسي نشأت علوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة والنقد ....الخ فأخذت الكلمة بعدا أوسع ، إذ أطلقت على هذه المعارف كافة . أمّا في العصر الحديث فقد أصبحت تعني ((**الكلام الانشائي البليغ الذي يقصد به الى التأثير في عواطف القرّاء والسامعين ، سواء أكان شعرا أم نثرا**)) .

معنى لفظة (الجاهلية) :

حمل مفهوم لفظة (الجاهلية) إشكالية حين فسّر بـ (الأمية) ووصم العصر الجاهلي بالتخلف الحضاري والثقافي .

لقد أجمع معظم الباحثين على أن لفظة (الجاهلية) التي أطلقت على عصر ما قبل الاسلام إنما تعبّر عن أمية العرب الدينية لا العلمية ، فلفظة الجاهلية في المعاجم وصف للحال التي كان عليها العرب قبل الاسلام من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبر ، فهي ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه ، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى االسفه والغضب والنزق ، فهي تقابل كلمة الاسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله عزّ وجلّ وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم ، ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحميّة والطيش والغضب ، ففي سورة البقرة : ((**قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**)) وفي سورة الأعراف : ((**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**)) وفي سورة الفرقان : ((**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**)) ، وفي معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وواضح في هذه النصوص جميعا أن الكلمة استخدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق . وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الاسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحميّة والأخذ بالثأر واقتراف ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات .

الرواية :

كانت الكتابة معروفة في العصر الجاهلي ، بل كانت شائعة فيه ، ولا أدلّ على معرفة العرب بالكتابة من تشبيه الشعراء الجاهليين الأطلال بالخط الدارس ، من ذلك قول امرئ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني

وقول حاتم الطائي :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدمّا كخطّك في رقّ كتابا منمنما

وقول أبي ذؤيب الهذلي :

عرفت الديار كرسم الكتا ب يزبّره الكاتب الحميري

ويدور هذا التشبيه كثيرا في أشعارهم ، ممّا قد يدل على أنّ كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إنّ فريقا منهم ، كما يقول الرواة ، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدّثونا عن لقيط بن يعمر الإيادي وعدي بن زيد العبادي ، إذ كانا كاتبين في البلاط الفارسي ، وممّا لا شك فيه أنّ الكتابة كانت شائعة في الحواضر وخاصة في مكة . وفي السيرة النبوية أنّ الرسول الكريم (ص) جعل فداء الأسرى ممّن يعرف القراءة والكتابة في بدر أن يعلّم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة . والحق أنه ليس بين أيدينا أيّ دليل مادي على أنّ الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم .

ومن يرجع الى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائما الرواية وأنها وسيلة انتشاره في القبائل ، فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها الى آفاق الجزيرة ، يقول المسيّب بن علس :

فلأهدينّ مع الرياح قصيدة مني مغلغة الى القعقاع

ترد المياه فما تزال غريبة في القوم بين تمثّل وسماع

ويقول عميرة بن جعل نادما على هجائه لقومه وشيوعه في العرب وأنه لم تعد له حيلة في ردّه :

ندمت على شتم العشيرة بعد ما مضت واستتبّت للرواة مذاهبه

فأصبحت لا أسطيع دفعا لما مضى كما لا يردّ الدرّ في الضرع حالبه

فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت الأداة الطيّعة لنشره وذيوعه ، وكانت هنـــــاك طبقة تحترفها احترافا هــي طبقة الشعراء أنفسهم ، كأوس بن حجر الذي أخذ عنه زهير بــن أبي سلمى ، وكان لزهير راويتان هما ابنه كعـب والحطيئة وعن الحطيئة أخذ هدبـــة بـــن الخشرم العذري ، وعن هدبة أخذ جميل بثينة ، وعن جميل أخذ كثيّر عزّة ، وطبقة أخـــرى هي طبقة الرواة العلماء وأهم هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحمّاد الراويـــــة وخلـــف الأحمـــر ومحمد بن السائب الكلبي والمفضّل الضبّي .

أوليـــــة النثر :

لا يمكن الجزم بأن ما وصلنا من النثر الفني يمثّل الجذور الأولى لهذا الفن ، لأننـــا وإن عثرنا على نص نثري قديم جداً ، فإننا سوف نفاجأ بأنه سيق بلغة لا تختلف عن لغـــة راوي هذا الخبر ، والسبب أن روايته بلفظه قد يعسر فهمها ، لأنها لغة أقوام بائدة اختلفت عن لغة العصور التالية اختلافاً جوهرياً ، لذا عمد الرواة لتحويلها الى لغتهم المعاصرة .

أمّا أولية هذا النثر ، فإن هناك مؤشرات تفيد بأن النثر قد ارتبطت أوليته بمعطيات دينية ، شأنه في ذلك شأن الشعر ، فهناك طلاسم السحرة ، والكهّان ، والعرّافين التي كتبت فـــي صورة رقي وتعويذات ، وكان بعضها ينقش على الحجر ويوضع في أبواب المدن لطرد الشر واستجلاب الخير ، إذ كان لكلام الكهّان أثره في النفوس بعد أن ألقوا في روع الناس أن لهـم خوارق تفوق تصور البشر ، وأن لهم اتصال بالغيب . إن هذا الأمر يؤكـــد ما للجانـــب الروحي من علاقة وثيقة بحياة العرب الأدبية ، والاجتماعية على حد سواء .

مصادر دراسة النثر الجاهلي :

- **كتب الأمثال :** وهي أقدم المصادر ، وقد عرفنا بوساطتها أغزر أنـــواع النثـــر الجاهلي ، ومع أن المؤلفات الأولى للأمثال لم تصل الينا ، إلّا أننا نستشف مـــن مؤلفات الجيل الثاني أنها قد احتوت على أعمال العلماء الأوائل مع إضافة مـــادة جديدة ، ومن أهم مؤلفات الجيل الأول ، صحيفة صحار بن العبـــاس العبـدي ،

وكتاب عبيد بن شريه الجرهمي وغيرهما ، ولعلّ أقدم ما وصلنا في هذا المجـــال كتاب الأمثال للمفضّل الضبّي(١٦٨هـ) ، وهو عالم ثقة وهو من رواة الشعر أيضاً ، وطريقته أن يذكر المثل ويشرحه مستطرداً الى ما يعترضه من لغة أو خبـــر أو يوم من أيام العرب ، إذن فهو يحوي على مادة غزيرة ورصيداً لغويـــاً وتاريخيـــاً وأدبياً ، وهناك كتاب مجمع الأمثال للميداني (٥١٨هـ) ، والمستقصى من أمثـــال العرب للزمخشري(٥٣٨هـ) .

- **كتب التفاسير والشروح** : أهمها تلك التي تفسّر آيات القرآن الكريـــم وأحاديـــث الرسول (ص) ، مثل تفسير الطبري ، وهناك شروح في غير علوم القرآن والحديث ، مثل شروح الدواوين والمجموعات الشعرية ، وهناك مؤلفات اختصّت بشرح النثر ويأتي في مقدمتها شرح ابن أبي الحديد(٥٨٦هـ-٦٥٥هـ) على نهج البلاغة الـذي جمعه الشريف الرضي (٤٠٦هـ) ، وفيه كل ما نسب الى الإمام علي (ع) مـــن خطب وأوامر وكتب ورسائل وحكم ومواعظ ، وما يهمنا هو الشرح لا المتن ، فقـد ساق إشارات الى فترة ما قبل الاسلام سواء جاءت على شكل قصة أو طرفـــة أو خطبة أو خبر .
- **كتب السير والتاريخ والبلدان والمغازي** : ليست جميع كتب السير معتمدة فـــي نصوصها النثرية ما عدا السيرة النبوية لمحمد بن هشام ، وإلّا فإن معظم السيـــر وخاصة الشعبية قد دخلها الوضع مثل سيرة المهلهل بن ربيعة (الزيـــر سالـــم) ، وسيرة عنترة ، وسيرة سيف بن ذي يزن ، فإنها في الغالب تحوي على منافـــرة أو مفاخرة أو خطبة موضوعة ، إلّا ما وثقناه عن طريق مقابلته مع نص مشابه لـــه في مصدر آخر . ومع ذلك تظل هذه السير الشعبية بالرغم من نثرها المصنـــوع مصدراً لدراسة الحياة العربية قبل الاسلام ، لأن مؤلفها اجتهد كي يقدم صـــورة مطابقة لواقع الحياة القديمة محتذياً النصوص الأصلية النادرة التي وقعت بين يديه ، إذ قلّدها ليحاكي الأصل . وتقدم كتب التاريخ رصيداً ضخماً في القصص مثـل تاريخ الطبري ، وكتاب المغازي لوهب بن منبه ، ومـــروج الذهـــب للمسعودي ،

وتاريخ اليعقوبي ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، ومعجم ما استعجم للبكـــري ، على أن جميع النصوص النثرية هنا لا ترتقي في صدقها وأصالتها وفنها الى مـــا تحويه كتب الأمثال .

- **كتب اللغة والأدب :** وأهمها كتب النحو والأدب والبلاغة والفقه والمعاجم ، ومـــــا يميّز النصوص النثرية في هذه المصادر هو القصر ، لأن موضوع الشـــاهد هو المقصود . من هذه الكتب (الكامل) للمبرد ، و(العمدة) لابن رشيــق القيــرواني ، و(الأمالي) لأبي علي القالي ، و(البيان والتبيين) للجاحظ وغيرها .

أنـــواع النثـــــر:

أولاً : الخطـــابة :

الخطابة فن من فنون النثر ولون من ألوانه ، وهي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد علـى الإقناع والاستمالة والتأثير، فهي كلام بليغ يلقى في جمع من الناس لإقناعهم فـــي رأي ، أو استمالتهم إلى مبدأ أو توجيههم إلى ما فيه الخير لهم في دنيا أو آخرة .

أهميتهـــا :

والخطابة ضرورية لكل امة في سلمها وحربها ، فهي أداة الدعوة إلى الرأي والتوجيه إلـى الخير، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين من الزعماء والمصلحين ، فهي ضرورة مـــن ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية وكان للخطابة شأن عظيم في العصر الجاهلي وكان للخطيب مركز ممتاز لا يقل عن مركز الشاعر حتى أن أبا عمرو بن العلاء يقول :(إن الخطيب في الجاهلية كان فوق الشاعر).

فالخطابة اذن ضرورة من ضروراتهم وحاجة من حاجاتهم ، يتخذونها في السلم وسيلة فـي المفاخرة والمنافرة ويصطنعونها في الحرب لتثبيت الجنان ، وتحميس الجبان ، وبعث الحمـية في النفوس ، وجمع الكلمة ، وتوحيد الصفوف.

عوامل ازدهار الخطابـــة :

يرجع ازدهار الخطابة في الجاهلية الى عدّة عوامل أهمّها :

١ – الحرية التي لا يحدها سلطان ، ولا تقيدها حكومـة .

٢ – القتال الدائم بين القبائل وما يتطلّبه من تحميس أو حض على ثأر .

٣ – حب المفاخـرة المتأصل في نفوس العرب .

٤ – تشقيق الكلام ، وما جبلوا عليه من فصاحة .

٥ – ابتذال الشعر أخـر الأمر في التكسب .

٦ – اختصاص الرؤساء والزعماء بها .

موضوعاتهـــــا :

إما موضوعاتها فكانت تدور حول الحث على القتال ، والاخذ بالثار ، والدعوة الى الصـلح والسلام ، والتنفير من الحرب وويلاتها ، والمفاخرة بالمكارم والعصبيات ، والســفارة بين القبائل العربية ، أو بينها وبين جيرانها ، والتعازي والتهاني ، والاستنجاد وتأمين السـبل ، وحراســة التجارة ، كما كانت تدور موضوعاتها أيضا ، حول الزواج والدعوة إلى عبـادة الله وتوحيــده والتبشير برسوله ، كما سنرى في خطب قس بن ساعده ، هذا ومن أشــهر الخطباء في العصـر الجاهلي : قس بن ساعده الأيادي ، واكثم بن صيفي التميمي ، وعمرو بن معد يكرب الزبيـدي ، وحاجب بن زرارة التميمي .

السنن والتقاليد المتّبعة في الخطابة :

لقد تواضع الخطباء على تقاليد يلتزمونها في خطبهم أبرزها : إنّ الخطباء كانوا في المواسم يتسنّمون الرواحل ليراهم القاصي والداني ، ويلفّون على رؤوسهم العمائم لتزيدهم وقاراً ، ويشيرون أثناء خطبهم بالعصي والقسي لكي يؤثّروا في نفوس الناس . ويمتدح في

الخطيب أن يكون جهوري الصوت ، قوي الحجّة ، حاضر البديهة ، قوي الشخصية ، قادراً على إقناع الناس .

وكانوا يعيبون فيه التعثّر في الكلام ، والارتعاش والخوف من لقاء الناس ، والاسراف في الحركات المعبّرة ، وعدّوا ذلك دليلاً على إنطاق الجوارح بما يعجز اللسان عن النطق به .

أنواعهـــــــا :

شهد العصر الجاهلي انواعاً من الخطب تختلف باختلاف الدواعي التي تقتضيها ، واشـهر الانواع : خطب المنافرة ، وخطب الوعظ ، والخطب الحماسية ، وخطـــب الزواج .

خطب المنافرة : وهي لون من الوان المفاخرات التي كانت تقع بين سيدين يزعم كل واحد منهما انه اعظم سؤددا ، واعزّ نفرا ، ومن هنا سميت بالمنافرات ،حيث ياخذ كل واحد منهما بذكـر مأثره في الشجاعة والكرم ، وغيرها من المثل الانسانية الرفيعة ، فاذا فرغ منها اخذ في ذكـر مأثر رجالات بيته ، ثم مآثر سادات قبيلته ، ومن هذه المنافرات : منافرة علقمة بن علاثـــة وعامر بن الطفيل حينما تنازعا الرياسة وجعلا قطبة بن سنان الفزاري حكما بينهما ، فمضـــى كل واحد منهما يذكر مناقبه ، فهي شبيهه بمعركة انتخابية يتنافس فيها زعيمان من زعمـــاء السياسة للفوز بتأييد الجماهير وثقتها ، فقال علقمة لعامر:

والله اني لأكرم منك حسبا

وأثبت منك نسبا

وأطول منك قصبا

فقال عامر لعلقمة :

والله لأنا خير منك ليلا ونهارا

انا أنحر منك للّقاح

وخير منك في الصباح

وأطعم منك في السنةِ الشياح

خطب الوعظ : ومن اشهرها خطبة قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ ، وهي خطبة طويلة نقتطف منها هاتين الفقرتين يقول قس:

أيها الناس

اسمعوا وعوا

أما بعد :

فانه من عاش مات

ومن مات فات

وكل ما هو ات آت

مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون

أرضوا بالمقام فأقاموا

ام تركوا هناك فناموا

الخطب الحماسية : ونعني بها الخطب التي تقال في التحريض على القتال ، ولاشك ان هــذا النوع أكثر خطبهم بعد المنافرات ، نظراً لكثرة تفاخرهم بأيّامهم ، ومن اشهرها خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني التي خطبها في "ذي قار" اذ قال وقد التقى الزحفان ، وقد تقارب القوم مــن القوم:

يا قوم

هالك معذور

خير من ناج فرور

انّ الحذر لا ينجي من القدر

وان الصبر من اسباب الظفر

المنيّة ولا الدنّية

النار ولا العار

واستقبال الموت خيرُ من استدباره

خطب الزواج أو الاملاك : في هذا النمط مِن الخطب يُعلن الخطيب مناقب الخاطب ليظفـــر بالقبول من اهل المخطوبة ، وربما نهض خطيب من قوم المخطوبة ، فتكلم فيكون الكــلام ردّاً لبقا يؤنس الناس ويترجم مكارم الاخلاق.

وهذا الضرب من الخطب لا يخلو من اعنات للخطيب وكدّ للخاطر ، ولعل السبب في ذلك ، المأزق الذي يوضع فيه الخطيب ، فالأفكار لا تخلو من مجاملة ومصانعة ومذاهب القــول محدودة بالمدح الهادف الى الظفر بالقبول ، ولذلك يتوخى الخطيب الصدق ، وسوق الفضـائل ، ومن أشهر الخطب المشهورة في هذا المجال ، خطبة أبي طالب (رض) في خطبة الســيدة خديجة (رض) للرسول الكريم (ص) اذ قال :

الحمد لله

الذي جعلنا من زرع ابراهيم

وذرية اسماعيل

وجعل لنا بيتاً محجوجاً

وحرماً امناً

ثم ان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ابن اخي

من لا يوزن بأحد الا رجحه

ولا يعدل بأحد الاّ فضله

وله في خديجة رغبة

ولها فيه مثلها

وما كان من صداق

ففي مالي

خصائصها الفنيـــة :

تتميز الخطابة بجملة من الخصائص أهمها :

- **الاستهلال** : يستهل الخطباء الجاهليون خطبهم بعبارات مختلفة تناسب المخاطـبين ، مثل عبارة (أما بعد) ، التي غالبا ما يستهل بها قس بن ساعدة خطبه ، وكقولهم يا معشر العرب ، أو يا قوم ، أو يا أيها الناس ، وما الى ذلك من العبارات .

  قصر الجمل : وتكاد تكون متساوية في الطول ، وكلماتها موزونـة ومسجوعـــــة .
- **احتفالها بالصنعة الفنية** : كالسجع والجناس والطباق والتوازن ...الخ ، وذلك للتأثير فـي المتلقي .
- **الاستشهاد بالشعر والأمثال** .
- **جمال العبارة وتأثيرها في السامع** : يتوخى الخطيب في خطبته انتقاء الالفاظ الرشيقـة والمؤثرة ، حسب ما تملي عليه طبيعة الموقف والمناسبة ، وذلك للتأثير في سامعيـه .
- **الايقـاع** : كمـا يحـاول الخطيـب أن يختـار الفاظـا ذات جرس موسيقي متميـز للتـأثير فـــي متلقيه .

ثانيـــاً : الأمثـــــــال :

جاء في المعجم العربي ان جذر كلمة (مثل) يدل على مناظرة الشيء للشيء ، والمثل ،النظير، وهذا مثل هذا أي نظيره . والمثل المضروب مأخوذ من هذا لأنه يذكر موروَ به عن مثله في المعنى .

أما في الاصطلاح الأدبي : فإن المثل "هو جملة من القول مقتضبه من اصلها ،أو مرسلها بذاتها ، تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول ، فتنتقل عمّا وردت منه الى كل ما يص قصده منها من غير تغيير يلحقها في لفظها "وواضح ان هذا التعريف يجمع بين الحكمة والمثل ، فالمقتضبة من اصلها هي المثل الذي له اصل وقصة وحادثة معينة ، والمرسلة بذاتها هي الحكمة التي ينطق بها الحكيم بعد الحكيم بعد طول التجربة وعمقها .

وأشهر المؤلفات التي وصلتنا في الامثال: كتاب "أمثال العرب" للمفضل الضبي ، وكتاب "الأمثال" لأبي عبيد القاسم بن سلام و"جمهرة الامثال" لأبي هلال العسكري ، و"مجمع الامثال" للميداني .

والامثال أصدق شيء يتحدث عن اخلاق الامة وتفكيرها وعقليتها وثقافتها وتقاليدها وعاداتها،ويصوّر المجتمع وحياته وشعورة أتمّ تصوير،فهي مرآة للحياة لاجتماعية والعقلية والسياسية والدينية واللغوية ،وهي اقوى دلالة من الشعر في ذلك لأنها لغة طائفة ممتازة ، أما هي فلغة جميع الطبقات.

ومما يجدر ذكره ان الامثال يصعب تميز الجاهلي منها من الاسلامي لاختلاطهما ببعض الرواة والمؤلفين ،ولكن ما يشير اليه المثل من حادث او قصة أو خبرهما يتصل بالجاهلية يساعد عن معرفة الجاهلي وتمييزه من الاسلامي مثل "ما يوم حليمة بسر"وقد يدل على جاهلية المثل ان يكون مخالفاً لتعاليم الاسلام ومبادئه مثل" أنصر اخاك ظالماً أو مظلوماً" و "اليوم خمرٌ وغداً أمراٌ" أو ان ينسبوا المثل الى الجاهليين ، فحينئذٍ يتعيّن زمنه

وتأريخهُ ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والامثال السائرة مثل : أكثم بن صيفي ، وربيعة بن خدار، وهرم بن قطبة الفزاري ، وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة العامري .

خصائصها الفنيـــــة :

- **الإيجاز** : إذا كان الإيجاز ظاهرة تميّز اللغة العربية ، فهو في الأمثال شديد التركيز والتكثيف ، ولذلك شاع في الأمثال الحذف واضطر النحاة إلى التأويل والتقدير في أعرابها .
- **الشهرة والتداول** : لكي يأخذ الكلام صفة"المثل"لا بد من شهرته وتداوله وكثرة دورانه على السنة الناس وشيوعه بينهم .
- **احتفالها بالصنعة البديعية** كالسجع والجناس والتوازن وغيرها من العناصر الفنية التي تكسب الكلام سحراً وجمالاً وبلاغة ، وتستثير النفوس والعواطف وتملك القلوب والمشاعر . فمثال **السجع : (ليس من العدل سرعة العذل) ومثال الجناس : (ربّ قول أنفذ من صول) ، ومثال التوازن : (إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد) ،**
- **صيغ وتراكيب جوامد** لا تتغير غير خاضعة لقواعد النحو والصرف مثل"أعطِ القوسَ باريْها"بتسكين الياء في باريها والقياس فتحها ،"والصيف ضيَّعتِ اللبن"بكسر التاء في مخاطبة الواحد والواحدة والأثنين والاثنتين والجماعة.
- **التصوير:** مثل "قد بيَّن الصبح لذي عينين"قد استعير لفظ الصبح للدلالة على الحق و"لا يجتمع السيفان في غمد" والمراد بالسيفين البطلان.
- **الإيقاع** : زيّن العرب أمثالهم بتوقيعات صوتية جميلة تيُسَّر تداولها ، وتفتح لهـــــا القلوب والاسماع ، كالسجع والتوازن والجناس والطباق ، وربما توافر لبعضهـــا الوزن الشعري ، أما لورودها في قصائد ومقطوعات وأما لأن الحس الرهيف الذي شارك في صوغها أطلقها موزونة مثل **(ترى الفتيان كالنخلِ ، وما يدريك ما الدخلُ)** .

ثالثــاً : سجع الكهّــان :

السجع في اللغة الصوت المتوازن ، أما في الاصطلاح الادبي فالسجع هو الكلام المقفى ... وسجع تسجيعاً تكلّم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن ، وهو من الاســـتواء والاستقامة والاشتباه ، كأن كل كلمة تشبه صاحبتها والسجع سمّي سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله .

والسجع في الجاهلية ضرب من الكلام التزم فيه الكهّان لا يفارقونه ، والكهّان ـ كمـــا تصورهم أخبار العصر الجاهلي ـ طائفة من الناس كانت تدّعي التنبؤ ومعرفة المغيبات ، وكل كاهن كان يدّعي أن له تابعا من الجن يسمى رئياً ، يسرق له السمع ويكشف حجب الغيـــب ، ويستطلع ما سيكون ، وكان العربي الجاهلي يصدق الكاهن احياناً ويفزع له ، ويستشيره فـــي المعضلات ، ويستنصحه في جلائل الأعمال ، كعقد حلف والكشف عن قاتل ، واشعال حرب ، ويحتكم اليه في خصومة أو منافرة أو تعبير رؤيا ، وقد يستبق الكاهن قومة ، فيتنبـأ لهم بما سيقع ، فيحذرهم كارثة تهددهم ، أو غزواً يدبّر لهم ، وحكم الكاهن في أغلب الأحـوال كان مقبولاً لايرد ، وقضاؤه كان نافذاً لاينقض ، فاذا شاعت للكاهن شهرة ، وأثر عن تنبئـــه الصدق في بعض المواقف اتسع نفوذه وجاوز حدود القبيلة التي ينتمي إليها .

ومن أشهر الكهّان في الجاهلية : سطيح الذئبي ، وشق بن مصعب الانباري والمأمـــور الحارثي وخنافر الحميري وعوف بن ربيعة الاسدي الذي حرّض قومه على الثورة على حجـر بن الحارث ـ والد أمرئ القيس الشاعر ـ وعلى قتله ، وبجانب هؤلاء الكهّان جماعة مـــن الكاهنات ومن أشهرهنّ الشعثاء ، والكاهنة السعدية والزبراء كاهنة بني رئام ويروى أنهـــا أنذرتهم غارة عليهم فقالت :((واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، ان شجر الوادي ليأدو خَتْلا ، ويحرق أنياباً عُصْلا، وأنّ صخر الطوْد ليُنذِرُ ثكْلا ، لاتجدون عنه مَعْلا)) يأدو : يخدع ـ مَعْلد : مَلجأ

خصائصه الفنيـــة :

- **أبرز ما يميز سجع الكهّان انه جمل قصيرة شديدة الايجاز ، مسجوعة وموزونةً وتكاد تكـون متساوية في طولها .**
- **غموض العبارات والألفاظ :** يعمد الكهّان في كثير من الأحيان الى التوكـأ علـى العبـارات المبهمة والالفاظ الغامضة حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤول كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه ، ومن ثم دخل الرمز في كثير من أقوالهم ، اذ يومِؤُون الى ما يريدون أيمـاءً ، وقلّما صرّحوا أو أوضحوا ، بل دائماً يأتون المعاني من بعيد ، بل انهـم كانوا لا يحبـون أن يصوروا في وضوح معنى من المعاني اذ يتخذون له اشباحاً واضحة من اللفظ تدل عليـه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبئهم الذي يقوم على الابهام والوهم واختيار الألفـاظ التي تخدع السامـع وجوهاً من الخدع ، ومن ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عـدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيهـا الاختلاف والتأويل .
- **كثرة الأقسام والايمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي والصبـح المنيـر والأشجار والبحار وكثير من الطير** . وفي ذلك مايدل على اعتقادهم فـي هذه الأشياء ، وان بهـا قوى وارواحاً خفية ومن اجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكـدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثيـر في نفوس هؤلاء الوثنيين . ويمثّـل النـص المذكور آنفاً (واللوح الخافق .. الخ) مثالاً صالحاً على هذه الخصائص جميعهـا .

رابعـــاً : القصـــــــص :

يزخر تراثنا الأدبي بنتاج وافر من القصص ، ويعود سبب كثرة هذا النوع النثري الـــــى سببين :

١-طبيعة الانسان العربي المتميزة بسعة الخيال وانطلاقة الفكر وطواعية لغته فـــــي أداء هذا النوع الفني .

٢-**البيئة الطبيعية المناسبة** : إذ كان العرب يتسامرون في الليالي المقمرة ، يســـــردون الأحداث القديمة التي توارثوها عن آبائهم .

وقد وردت هذه القصص بالغة العربية الفصيحة على الرغم من قدمها ، لأنها دوّنت فـــي القرن الثاني الهجري فاكتسبت أسلوب هذا العصر ، إلّا أن حدث القصة ظلّ يحمل طابـــــع العصور القديمة ممّا لا يمكن الطعن بانتمائها الجاهلي ، علماً أن هذه الحالة واردة في جميع الآداب الكلاسيكية النثرية ، وذلك لندرة التدوين ومثال ذلك : الملاحم السومرية ، وملحمـــــة كلكامش فضلاً عن قصص الأنبياء والملوك والأمم الغابرة التي وردت في القرآن الكريـــــم .

ومن المهم أن نشير الى أن مؤلف معظم هذه القصص مجهول ، ومؤلفها هو المجتمـــع آنذاك ، أمّا الذي حملها من جيل الى جيل فهم الرواة ، وأهم رواة القصص : أبو عبيـــــــدة معمر بن المثنى الذي جمع قصص أيام العرب ، وابن اسحاق وابن هشام اللذان اختصّـــــا بالسيرة النبوية فضلاً عن النفضّل الضبّي ، ويونس بن حبيب ، وغيرهم .

أنواع القصـــــص :

١ – **القصة التاريخية** : إن هذا النوع من القصص يسرد السيرة الذاتية للعرب وأحوالهم وكل ما يخصّ شؤونهم ، فضلاً عن أسماء أجدادنا القدماء وانتقالهم من شبه الجزيرة العربية ، وأسماء الغرب البائدة وقصصهم لقوم (عاد وثمود وطسم وجديس) .

ومن القصص التاريخية (أيام العرب) التي تقوم بسرد بطولات العرب وحروبهم ، ومـــــا سجّله أبطالهم من انتصارات ، فقد ظلوا يقصّون هذه الأيام والحروب الى أن تناولهـــــا رواة القرن الثاني للهجرة فدوّنوها تدويناً دقيقاً على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحــه لنقائض جرير والفرزدق . وكانوا يقصّون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنـــة ومـــــن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية وقصة (الزبّاء) ممّا نجده مبثوثاً في تاريـــخ الطبري والسيرة النبوية لابن هشام ، والأغاني لأبي فرج الأصفهاني .

ومن القصص التاريخية المشهورة قصة بناء قصر (الخورنق) الذي بناه رجل يدعـــــى (سنمّار) للملك النعمان بن المنذر الذي غدر به فيما بعد .

٢ – قصص الأسفار والحروب :

كانت للعرب في جاهليتهم أسفار ورحلات كثيرة تمخّضت عنها حكايات وقصص كثيــرة صوّرت أهوال السفر ومشاق الطريق والمخاوف التي تعترضهم ، ومن أبرز هذه الأسفـــــار رحلة قوافل كسرى التجارية الى اليمن وما تبع هذه الرحلة من معركة سمّيت بـ(يوم الصفقــة) وهو من أيام الجاهلية ، انتقم فيه الفرس من بني تميم لنهبهم هذه لقوافل كسرى .

وكذلك رحلة أبي طالب (ع) الى الشام .

أمّا قصص الحروب فهي أهم من قصص الأسفار ، لأن الجزيرة العربية شهدت حروبـــاً طويلة كحرب البسوس ، إذ تعدّ هذه الحرب –على ما فيها من مبالغة– من أشهر الملاحـــم العربية وقصة حرب داحس والغبراء ، وحروب الأوس والخزرج .

٣ – القصص الشعبية أو (الأساطير) :

الأسطورة : هي قصة خيالية ذات أصل شعبي والاسطورة لها أصل من التاريخ أو من تراث الشعب ، لكن هذا الأصل امتزج بالخيال وداخلته قوى غير مرئية كالجن والشياطين والأمور الغيبية الخارقة والغول ، فضلاً عن قصص الحيوانات الناطقة . إن هذه القصص تمثّل مرحلة متقدمة من حياة الشعوب البدائية .

وقد علّل الجاحظ نشأة الأساطير وشيوعها بقوله : (إن القوم لمّا نزلوا البلاد عملت (أثّرت) فيهم الوحشة والانفراد ... وإذا توحّش الانسان تمثّل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب ، وتفرّق ذهنه .. فرأى ما لا يرى .. وتوهّم الشيء اليسير أنه عظيم وجليل ..) .

هذه هي الأسس النفسية والاجتماعية لأساطير العرب ، ومن أشهر هذه الأساطير ، قصة زرقاء اليمامة ، وقصة لقمان ونسوره السبعة ، ومن هذه النسور (لُبَد) ، الذي بموته مات لقمان بعد أن اختار أن يعيش عمر سبعة نسور وقد ذكره النابغة في قوله :

أضحت قفاراً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

أمّا قصة (الحيّة والكنز) فهي قديمة ومعروفة بين العرب ، خلاصتها : أن أخوين نزلا بوادٍ تحميه حيّة رقطاء فنهشت الأول ومات ، فخافت أن يثأر منها الأخ الثاني فاتفقت معه أن تدفع له كل يوم ديناراً ، فلمّا كادت أن تستكمل الديّة غدر بها وضربها على رأسها بفأس ، لكنه أخطأها ... فدعاها الى معاودة الصلح والاتفاق فرفضت الحيّة ذلك قائلة : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك وقبر أخيك . وقد وظّف النابغة هذه الاسطورة في شعره معاتباً (بني مرّة) قائلاً :

وإني لألقى من ذوي الضغن منهمُ بلا عثرةٍ والنفس لابدّ عاثره
كما لقيت ذات الصفا من حليفها وما انفكّت الأمثال في الناس ساره

٤ – القصة الاجتماعية :

إن هذا النوع من القصص يختص بحياة الناس اليومية ، في الحب والزواج ، والغنى والفقر ... الخ ، ويغلب على هذا النوع الطابع الشخصي ، لأنها تقصّ وتسرد جزئيات حياة الناس بخلاف القصة التاريخية ، ومن ذلك قصة المرقّش الأكبر وحبه لابنة عمّه (أسماء) التي زوّجها أبوها من رجل مرادي (من قبيلة مراد) ، مستغلاً سفر المرقّش ، فلمّا عاد أخبروه بأنها ماتت ، ثمّ علم فيما بعد بزواجها ، فخرج يطلبها في البلاد الى أن مرض وهو في الصحراء ، فمرّ به راعٍ لزوج (أسماء) ، فأخبره المرقّش بقصته فذهب الراعي اليها حاملاً خاتم المرقّش ، فلمّا علمت بأمره جاءت مع زوجها المرادي وحملاه حتى مات عندها .

من الملاحظ أن القصة الاجتماعية إذا تعرّضت لشخصية ملك أو رئيس فإنها تصطبغ بالموضوعية ، كما هو الحال مع قصة (الحارث بن عوف) الذي يعدّ من سادات العرب ، فبعد أن خطب ابنة (أوس بن حارثة الطائي) ، وأخذها الى ديار قومه ، رفضت العروس أن تقام الولائم ، والعرب تقتل بعضها بعض وذلك في أيام حرب (داحس والغبراء) بين (عبس وذبيان) ، فقال الحارث : إني لأرى همةّ وعقلاً ، فحمل من الديّات ثلاثة آلاف بعير وفي هذه المناسبة قال زهير بن أبي سلمى مادحاً :

يميناً لنعم السيّدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

وهناك أنواع أخرى من القصص كقصص المجون وما يتصل باللهو ومجالس الشراب من عبث ، كقصة (دارة جلجل) التي ذكرها امرؤ القيس في معلقته ، وهناك النوادر وهي قصص الفكاهة التي يسردها الندماء للملوك ، وهناك الخرافات وهي الأحاديث المستملحة من الكذب ثمّ تطوّرت الى قصص موضوعة على ألسنة الحيوانات ، الغاية منها التربية والوعظ ، وتقديم النصح بقالب قصصي مثل قصة (كليلو ودمنة) .

الخصائص الفنية والموضوعية للقصة :

تتميّز القصة بجملة خصائص فنية نجملها بما يأتي :

- **القدم** : إذ يرى الباحثون أنها سبقت الشعر لأنها لا تحتاج الى جهد فني أو فكـــري .
- **تعبيرها عن الانسان العربي** : استطاعت القصة القديمة على بساطتها أن تكشـــف طباع العرب وأفكارهم وأهوائهم ، وأن تخلق نوعاً من التلاؤم بينهم وبيـــن أســـــرار الطبيعة .
- **المشاركة في صنع القيم** : شاركت القصة الشعر في صياغة المثل العليا ، وتحديـــد القيم ، وتوضيح العلاقات بين القبائل ، وبين الفرد والقبيلة .
- **تصوير البطل الرمز** : إذ اختارت القصة القديمة شخصيات مرموقة جعلتها رمـــــوزاً للفضائل مثلاً : عنترة يصور أعلى درجات الشجاعة ، حاتم يصور غايـــة الكـــرم ، والسموأل يمثّل الوفاء ، وقصة رهن درع امرئ القيس لديه معروفة في التراث الأدبي .
- **بساطة البنية الفنية** : إذ توفرت في هذه القصص أهم عناصر القصـــة من أحـداث وسرد وفكرة وهدف وشخصيات وزمان ومكان ، ومع أن هذه العناصر لم تكن تامّـــة النضج في القصة القديمة ، إلّا أن هذا الأمر لا ينتقص منها كفن كان في بدايـــــة ظهوره .

خامساً : الرسائـــل والعهـــــود :

إن كتابة الرسائل والعهود ترافق الحضارة والاستقرار ، ولمّا كانت الممالك العربية التي لا تشغل من الجزيرة العربية إلّا أقلّها ، لا تنضوي تحت ألوية الملوك من العرب ، لذا قلّـــــت الرسائل والعهود المدوّنة . ومن هـ ١١ القليل الرسالة الشعرية للشاعر لقيط بن يعمر الإيـادي الى قومه حي حذّرهم من غزو كسرى لهم ، إذ كان يعمل كاتباً ومترجماً في ديوان كســرى ، قائلاً :

يا أيها الراكب المزجي مطيته الى الجزيرة مرتـــــاداً ومنتجِعـــا
أبلغ إياداً وخلّل في سراتهـــمُ إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا

الى آخر القصيدة التي وصلت الى قومه واستعدّوا وهزموا الفرس ، ممّا أثار غضب كســرى الذي عرف بالأمر ، فأمر بقطع لسان لقيط ، وخلع عينيه ، ومات لقيط ، ونجت قبيلتـــه .

أمّا (صحيفة المتلمس) ، فهي شديدة الإيجاز تشبه البرقية ، يأمر فيها ملك الحيرة عامله في البحرين أن يقتل المتلمس ونصّها : (باسمك اللهم من عمرو بن هند الى المكعبر ، أمّـا بعد : فإذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً) .

إنّ الرسائل في العصر الجاهلي على أنواع ، فمنها ما هو مكتوب ومنها ما يروى شفاهاً على اللسان ، وهناك ما يرسل من عربي الى آخر في بلاد العرب ، وما يرسل من عربـــي الى أجنبي خارج بلاد العرب .

أمّا أهم ما يميّز الرسائل سواء الشفهي منها أم المكتوب فهو :

الإيجاز : إذ تعبّر الرسائل عن الأفكار بأقصر الجمل وأوضح الألفاظ ، ومن مظاهـــــر الإيجاز الزهد في المقدمات والولوج الى الغرض بلا تمهيد ، أو التمهيد بجملة تقليدية مألوفـة هي ذكر اسم الله ، وقد تميّزت رسائل قريش بأنها تبدأ بعبارة (باسمك اللهم) ثم استبدلت بعـد الاسلام بعبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) ، ويبدو أنّ هذه المقدمة كانت متّبعة قبل الاســلام ، إذ أوردها القرآن فاتحة لرسالة النبي سليمان (ع) الى ملكة سبأ .

العهـــــود :

عرف العرب العهود شفهية ومكتوبة ، ومن أشهر العهود المدوّنة في الجاهلية : الحلــف الذي عقده عبد المطّلب بن هاشم مع خزاعة ، إذ يروي الطبري أنّ المتحالفين دخلوا الكعبــة وكتبوا كتاباً منه : (باسمك اللهم .. هذا ما تحالف عليه عبد المطّلب بن هاشم ورجـــالات عمرو بن ربيعة من خزاعة على التناصر والمواساة .. حلفاً جامعاً ..) .

ويبدو أنّ الرسائل والعهود متقاربة في الاسلوب ، فالنصوص قصيرة ، والمقدمات أقصر ، والسجع والصور ، والإيقاع الصوتي ، يضفي على فصاحة اللغة زينة لا تطغى على وضوح الفكرة .

سادساً : الوصايـــا :

وهي لون من ألوان الأدب النثري التربوي عرفها الأدب العربي القديم ، يوجهها الموصي الى أهله حينما يحس بدنو أجله ، الغاية منها النصح والإرشاد والترغيب في التزام الفضائل والتخلّق بالأخلاق الكريمة ، وتنطوي على مقدار كبير من الحكم والأمثال ، وتتضمّن خلاصة الخبرة في الحياة ، وتعبّر عن نظرة الموصي الى الدنيا وأحوالها .

ومن أشهر الوصايا ، وصية ذي الاصبع العدواني لابنه أُسيْد لمّا دنا أجله قائلاً : (يا بني إنّ أباك قد فنى وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنّي موصيك بما إنْ حفظتَه بلغتَ في قومك ما بلغتَه ، فاحفظْ عنّي : ألِن جابك لقومك يحبّوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وأبسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريخ ، فإنّ لك أجلاً لا يعدوك ، وصُنْ وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سؤددك) .

الخصائص الفكرية والفنية للوصايا : إنّ أهم ما يميّز الوصايا في الجانب الفكري ، أنها تعكس الفكر الهادئ العميق والحكمة ، والواقعية في النظر الى مشكلات الحياة واستنباط المعاني من التجربة الحياتية الحيّة لا الفلسفة النظرية .

أمّا في الجانب الفنّي فتتسم الوصايا بالجمع بين اللغة المرسلة والاسلوب المسجّع ، والجمل القصيرة المتوازنة ، والاعتماد على الأساليب الانشائية من أمر ونداء ونهي .